ارفعوا أعينكم وأنظروا

"ارفعوا أعينكم وأنظروا" (يو٤:٣٥) هكذا كان طلب المسيح من تلاميذه على سبيل الوصية الواجبة الطاعة. والنظر لا يعني مجرد المشاهدة ولكن الانفتاح على حقيقة ما واقتناءها. ورفع الأعين يعني وجود مستويين للاستنارة أحدهما أدنى من الآخر ويُحسب ظلاماً بالمقارنة به. ولو كنا مكان التلاميذ لشعرنا بالحيرة فهوذا المسيح يخبرهم أن الحقول قد ابيضت للحصاد بينما عيونهم وعقولهم تخبرهم أن الحصاد لن يأتي قبل أربعة أشهر. وفي الحقيقة هذا هو قصد الله وتدبيره في كل الخليقة أن يجعل "على كل مجد غطاء" (أش٤:٥). والغطاء ليس هو الحق ولكنه الزيف الذي يستتر وراءه الحق. وبالتالي يوجد من تتوقف بصيرته عند مستوى الغطاء ظاناً أنه الحق ويوجد من يعمق طلبه ليقتني الحق ذاته. يوجد من يستمد الحقيقة من خبرة الحواس والعقل فتخذله تلك الخبرة ليجد نفسه أمام الباطل عينه، بينما يوجد من يستشعر بحواسه الروحية المدربة استعلانات الروح القدس في إنسانه الداخلي. الأول يبني على الرمل، والثاني على الصخر. الأول يبني قشاً وخشباً يحترق، بينما الثاني ذهباً وفضة تدوم. وكل ما يفنى ويزول ليس من الحق بشيء.

والطبيعة نفسها تعلمنا ذلك. فأنت تنظر لوردة وتجزم أن لونها أحمر ويقر أيضاً الجميع تلك الحقيقة. أما واقع الأمر فهو أنها امتصت كل الألوان ماعدا اللون الأحمر الذي عكسته فتراءت للعين على أنها حمراء. أي أن الأحمر هو اللون الوحيد غير الموجود في كيان وحقيقة هذه الوردة. بالمثل قد يتفق الجميع على هدوء مكان ما أما حقيقة الأمر فهي وجود صخب شديد من موجات صوتية متعددة في هذا المكان لا تستطيع الأذن البشرية التقاطها. لذلك لا يستطيع أي إنسان أن يدّعي أنه يعرف الحق ويمتلكه. ولعل هذا ما جعل السيد المسيح لا يجيب على سؤال بيلاطس عن ماهية الحق.

إن كل ممارسة نسكية يمكن أن تعاش على مستويين: مستوى الباطل ومستوى الحق. فالصلاة قد تكون تكراراً باطلاً للكلام (مت٦:٧)، والتناول قد يكون كمن يأكل ويشرب دينونة لنفسه (١كو١١:٢٩)، والصوم تقدمة باطلة (أش١:١٣). ولعل هذا هو السبب الذي سيجعل الكثيرين في حيرة شديدة في اليوم الأخير متسائلين: "يا رب متى **رأيناك** جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو عرياناً أو مريضاً أو محبوساً ولم نخدمك". أما رد المسيح عليهم "الحق أقول لكم بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر فبي لم تفعلوا" فهو يوضح كيف أن أولئك أُدينوا لأنهم لم يميزوا الحق فيما رأوه حيث كان أولئك الأصاغر الغطاء الذي اختفى هو وراءه (مت٢٥: ٤٤-٤٥). وهكذا يوضح سؤال المسيح لنا: "فإن لم تكونوا أمناء في مال الظلم فمن يأتمنكم على الحق" (لو١٦:١١) أن للغطاء الباطل وظيفة امتحان مدى أمانة جهادنا

في السعي. وإذ أُخضع الإنسان للبُطل بالعيش في عالم زائف فإنه يئن ويتمخض فيما هو يعطي ما لقيصر إلى أن يُعتق من مستوى عبودية الفساد ويؤتمن على مستوى حق ومجد أولاد الله.